

التغيرات الاقتصادية والثقافة

أ.د. عبد الكريم كامل أبو هات

((إن الفقر الموجود وسط الوفرة أو البحبوحة الخالية من البهجة إن هما إلا إعراض لاضطراب خطير))
(تبيور سيتوفسكي))

لم يكن صعود الطبقة الرأسمالية لقيادة التحولات الاجتماعية نتاجاً عرضياً للتاريخ أو لخصائص ذاتية تتصل بفرداتها (نزعها نحو التفرد)، إنما ارتبط صعودها بموجات من التطورات التاريخية في البنى المادية والفكرية، حيث مثلت التغيرات التكنولوجية وفلسفة عصر التنوير Enlightenment والتحول في حركة إعادة إنتاج راس المال من مجال التداول نحو الإنتاج، إعلاناً بمولد طبقة راقية وثورية سيقدر لها إن تقود وبفوق تحولات المجتمع الأوربي نحو أفق جديدة... مستندة إلى نظرة مفرطة في عقلانيتها بتخليها عن المنهج الارسطوي في التفكير والتأويل وتبنيها الفلسفة التجريبية كملهمة لها في تجسيد نظرتها نحو مكوناتها الثقافي في حقبة من الزمن بدأت تكون الوحدات القومية المركزية والنزعة المادية الميكانيكية وفلسفات ديكارت وهوبز ولوك وسواهم من دعاة التغيير العقلاني للمجتمع علاناً لها.

في هذا الزمن امكن للرأسمالية المساعدة ان تتخطى البنى السائدة وتحقيق تحولاً مثالياً في منطق البحث ولتستكمل فيما بعد شروط هيمنة النزعة العقلانيةRationalist القائمة على المنطق الفردي Individualist والانسانية Humanism، مما سهل على ممثلي الاقتصاد الكلاسيكي استخلاص تيريراتهم المقبولة لانسجام Harmony المصالح الفردية والجماعية بل وتمائلها سايكولوجيا وثقافياً. فالفرد جزء من كل ويستمد خصائصه الذاتية من الخصائص الكلية، وبهذا يحدث التوازن داخل المجتمع مما يسمح باعطاء (فرصة اكبر للتوازن النفسي والثقافي للفرد الواحد)⁽¹⁾، لذلك ليس شيئاً يثير الاستغراب عندما ينوه اريك فروم E-Frome بما اضطلعت به الرأسمالية من (تقدم هائل في تفتح البشر وازدهارهم الحياتي)، إذ ثمة تكيف متبادل ينشأ بين نظرتي الفرد والمجتمع تجاه بعضهما البعض! فقد أتاح تبني النزعة الفردية فرصة للكشف عن مستوى آخر من التكيف المتبادل بين البنيتين المادية والثقافية. فما معنى ذلك؟ ببساطة ان التقدم التكنولوجي اعطى للرأسمالية احقيتها بالاستحواذ على التاريخ فيما بعد العصر الوسيط، والمتخيل في هذا الوضع الناشئ ان المجتمع الانساني كان بحاجة فعليه لتغيرات مادية (تكنولوجية) وعلمية ومعرفية وفرها عصر نيوتن Newton حتى يصل الى ما وصل اليه لاحقاً وتكيفنا نظرة اولية الى معطيات ونتائج الثورتين المعلوماتية والاتصالية لأدراك مغزى ما نوهنا عنه من تكيف تاريخي يتواصل وبقفزات مذهلة بين البنى المادية والثقافية ويكشف جوهر الانتقالات في مستويات التفكير الانساني والمفاهيم والقيم الثقافية التي سبق وان انطبعت بها ثيمات عصر ما قبل الثورة المعلوماتية والاتصالية، ثم تتولى هاتان الثورتان تنقيتها مما انغرز فيها، وتدفع نحو تعزيز وحدة الثقافة وعالميتها رغم تنوع اشكالها واجناسها، الشيء الذي يعطي الحق لمن يقول بان التكنولوجيا تحولت (الى عامل توحيد ثقافي على مستوى العالم باسره)⁽²⁾.

من تجليات التاريخ الانساني الراقية، ان اقتران العلم والتكنولوجيا بالانتاج الصناعي رفع معدلات النمو الاقتصادي لمراتب غير مألوفة تظهرت في مستويات الرفاهية، فمن المفترض ان يستتبع ذلك تناظراً للنمو الاقتصادي والنسق الثقافي للمجتمع، باعتبار ان ازدياد مستوى الرفاهية يرفع درجات الاعتباط النفسي والراحة والطمأنينة، وبالتالي تطور النسق الثقافي وهذه فرضية نعتقد انها بحاجة الى برهان ملموس لا يستدني فقدها العلاقة الجدلية ما بين تطور الحياة المادية وتقدم المنجز الثقافي. لكنها تبقى فرضية مقبولة ومشجعة للسيوسولوجين على دحض الفكرة القائلة بارتباط ظروف الضيق الاقتصادي والازمة وتهافت او انحطاط المنجز الثقافي للفرد وهنا سنكون بازاء مفارقة! فان كانت لازمة أسباباً مشخصة تستقر في حقيقة الانقطاع الدوري Periodical للإنتاج، فان العلاقة التكييفية بين البنيتين (المادية والثقافية) تظل تمارس تأثيراتها على اتجاهات تطور انساق المجتمع كلها، والفرد الذي يقال انه (فرد انسلخ) عن وسطه المجتمعي بسبب الأزمة وتحول إلى هامشي فيفتقد القدرة على التمييز بين الضرورة والصدفة هو فرد تختلط عنده الرؤى وتضطرب لديه الذهنية فيعجز عن تقديم حلولاً لمسائل مجتمعه التي سببت انسلاخه اصلاً، هكذا يتخيل البعض العلاقة النسبية بين الركود الاقتصادي وازمة النمو في ثقافة الفرد والمجتمع غير ان العلاقة بينهما ليست ميكانيكية الى هذا الحد!! حتى في مجتمع يقدر النمو والتراكم! لسبب ظاهر يتمثل في ان الرأسمالية هي التي قدمت للتاريخ تنوعاً في تحولاته نحو الارقى، فالثورة العلمية والتكنولوجية والاتصالية وضعت حركة الاقتصاد تحت طائلة التغيير المستمر فاتيح في ظل حضارتها الصناعية ان تكون الروابط بين التغيرات المادية وثقافة المجتمع الذي يلهث وراء استقصاء Maximitation النمو الاقتصادي اعظم مما قد يقدمه الانطباع عندما تكون ديناميكية التطور المادي وتقدم الثقافة سائرة باتجاهين متضادين فالثقافات لا توجد الا في ميدان تفاعل، وتشير الى ما هو عقلي وهي المستوى الثاني للحضارة (بالمفهوم الواسع) فلا بد اذن ان تتناظر حركتهما، والشيء الوحيد المقبول هو التمايز في اطار الثقافة الواحدة وهذا ما يفسر لنا التنوع في النتاجات الثقافية التي اعطتها الحضارة التقليدية ومجتمعات ما بعد الصناعة Post Industrial حيث استعادت الرموز والاشارات والأجواء والشخصيات بل والاحداث ايأ كان العصر، سواء كان عصر الركود ام عصر الانتعاش فبرهنت الثقافة بذلك على ان مهمتها هي مساعدة المجتمع على تطوير استجابته لشرط التطور العام والخاص⁽³⁾ وفي هذا تتوضح لنا الدلالات الملحة التي وضعها التاريخ امام البشر ليدفعوا باتجاه تقدم المجتمع عندما (يجهدون نظرياً و عملياً لحل المسائل التي تنشأ عن وجودهم الذاتي)⁽⁴⁾ فشرط هذا الوجود هو تحررهم من الفقر والبؤس.

الهوامش:

- 1- هاشم صالح، الليبرالية وإشكالياتها في الفكر الأوربي المعاصر، المنار، العدد 60، 1989.
- 2- د.معد زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، عالم المعرفة، الكويت 1987، ص.55
- 3- مطاع صفدي، الرسالة بين الأيديولوجيا اليوتوبيا، الفكر العربي المعاصر، العدد 14-15، مركز الإنماء العربي، 1981، ص.10
- 4- جاك نكسبه، غرامشي، دراسة ومختارات، ترجمة ميخائل ابراهيم مخول، دمشق 1972 ص.55.

E.mail: a_k_ abouhat @ yahoo . com
www.admin-econo-qad.com

